النملة والجندب

للكاتب الإنجليزي: سَمَرْسِتْ مُومْ

عندما كنت فتىً صغيراً كان عليَّ أن أحفظ ـ عن ظهر قلب ـ بعض أساطير «لافونتين» الخيالية تلك التي تحمل في طياتها مغزى تعليمياً معيناً يجمع بين التثقيف والإمتاع... كل درس منها كان يفسر لي بعناية فأجد في الأسطورة مرتعاً للأحلام ومنبعاً للوعي والإلهام. ومن بين تلك كانت حكاية «النملة والجندب» والتي ينصب مغزاها في بحيرة لفت انتباه الناشئة إلى أهمية الجد والعمل وسلبيات الاستهتار والطيش والتهور.

في هذه الحكاية المثيرة للإعجاب ـ وأستميح القارئ عذراً في ايراد مجملها كونها معروفة لدى الجميع تقريباً ـ تعمل النملة بجد واجتهاد طيلة فصل الصيف... جامعة قوت شتائها فيما يظل الجندب متأرجحاً على حد إحدى النباتات... شادياً بأعذب الألحان... غير عابئ ـ لسوء الحظ ـ بما ينتظره من ألم الجوع في مستقبل زمانه... وذُكاء تسكب عليه من صبابات عسجدها جداول دفء وألق وحبور.

ويجيء الشتاء فتسعد النملة بما قدمت لغد، أما مستودع الجندب فخالي الوفاض تعوي الريح في طياته وتصفر في جنباته!

ويهرع المسكين إلى النملة يستجديها ما يقيم به أوده فتجيبه:

ـ وماذا كنت طوال الصيف تفعل؟

فيجيبها في براءة: ـ كنت أغني ليل نهار!

فترد عليه في حنق: ـ اذهب إذاً فارقص! ـ

وكنت لا أمر بنملة ـ منذ أن سمعت بتلك الحكاية ـ دون أن أسحقها بقدمي لا لميل إلى المشاكسة والشر كامن، وإنما لقصور إدراك الطفل في ذاتي ـ آن ذاك ـ عن استيعاب المعنى الخفي المستتر خلف السطور بمعزل عن وليد بصيرتي. لقد اكتشفت لاحقاً أن طابع الإنسانية يغلب على تلك الحكاية، وأنها رمز للتعقل والحكم الصائب على الأمور قاطبة. لم أستطع إيقاف انسكاب جزئيات ذلك في تيار فكري حينما لمحت منذ بضعة أيام صديقي «جورج رمزي» يتناول غداءه وحيداً في أحد المطاعم. لم أرَ في حياتي ملامح كئيبة متجهمة كصفحة وجهه آنذاك... محدقاً في الفضاء... في أعماق اللاشيء كان كما لو أن متاعب الدنيا طرّاً كانت تجثم على عاتقه فينوء بثقلها منكباه... وتناذر حزني وأسفي على ما كان يحتمل في ذاته من هموم أدركت أن مصدرها كان لاشك أخاه سيئ الحظ «توم».

دنوت منه فأرحت على ظهره راحة يدي:

ـ كيف حالك؟ سألته.

لست في أزهى حالات روحي المعنوية! أجاب.

أهو «توم» ثانية!

وما أجاب، ترك العنان لتنهيدة حرّى... كيما تفارق صدره الضيق حرجاً كأنَّما هو يصعَّدُ في السماء!على أنه قال بعد لأي:

أجل.. هو «توم» ثانيةً!

لماذا لا تنفض منه يديك. لقد تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنه حالة ميئوس منها فماذا تنتظر؟ ما تركت من أجله شيئاً ما فعلته!

ووصلت إلى قناعة مؤداها أنه لابد أن يكون في كل عائلة شخص تافه... ضال عن جادة البقية، وأن «توم» كان دون ريب عالة وعلة عائلة «الرمزي». تلك الأسرة الشريفة التي نما «توم» بين ظهرانيها فما شك أحد بأنه سينشأ في بوتقة الاحترام ذاتها فيمارس عملاً شريفاً وذاك ما كان ـ بادئ ذي بدء ـ.

استهل حياته كأحسن ما يكون الاستهلال ودخل مجال التجارة ثم تزوج فرزق بابنين، إلا أنه قرر فجأة أنه لم يكن يصلح للزواج! أراد أن يتمتع بمباهج الحياة أن يتحلل مما كان يقيد حركته من مسؤوليات جسام ـ كما صورها له خياله ـ ولم يستمع لناصح بل ركب رأسه وأسرج جواد هواه وترك له العنان... ترك زوجته ووظيفته. وكان لديه حفنة من مال أنفقه متنقلاً بين بعض العواصم الأوربية على مدار عامين، وكانت الأقاويل الفاضحة تطرق أسماع عائلته فينزوون جراءها خزياً وألماً والصدمات الصاعقة تترى فتزعزع كيانهم فلا يملكون لها رداً. وكانوا يتساءلون: هو الآن يرتع في ظلالٍ وارفات من السعادة ولكن ما عساه يفعل حينما ينضب ما لديه من مال؟ على أنهم علموا أنه كان يقترض من رفاقه... كان له سحر لايقاوم... جذاباً كان... وفرض حضوره المتميز هيمنته على صحبه فما كان بوسعهم أن يردوا له طلباً... ما قابلت في حياتي شخصاً يصعب رفض طلبه قرضاً «كتوم». وأصبح له من جراء ذلك دخل ثابت تدره الاستدانة عليه... ولم يجد صعوبة في اتخام رصيده من الصداقات بمزيد من الرفاق كل يوم... قلت إن سحره لايقاوم، وكان يردد بغباء دائماً بأن المال الذي ينفق على ضروريات الحياة كان مملاً ممجوجاً، وبأن خير النشب هو ما أنفق على الكماليات ومتع الحياة! وكان يلجأ إلى أخيه «جورج» فيما يتعلق بالأمر الثاني. وكم من مرة وقع المسكين في شرك عذب حديث «توم» وما قطعه من عهود ومواثيق كاذبة في أنه ما تقدم بطلب مال منه إلا لكي يبدأ من جديد فيدشن مشروعاً ينطلق منه لتأمين لقمة عيشه على أنه خصص تلك المبالغ الكبيرة التي منحه إياها لشراء سيارة وحلي ثمينة. وعندما أيقن «جورج» بألا فائدة ترجى منه غسل يديه منه، على أن «توم» شرع في ابتزازه بامتهان حرَفٍ لاتليق بمقام عائلتهم واعداً بتركها إما أغناه بالمال عنها... فظل يدفع له منه ماشاء.

وأوشك «توم» مرة على دخول السجن فكاد «جورج» يفقد صوابه... وشعر بأن شقيقه قد تجاوز حدود المعقول رغم أنه كان على يقين من أنه لم يكن ليتجاوز الخط... الفاصل بين المباح والمحرم قانوناً؛ بين الممنوع والمرخص به، ولذا فقد

تنامى غضبه وتناذرت دهشته عليه حينما سمع بأنه قد احتال على أحدهم وأن الضحية قد رفع عليه دعوى قد تجعله رهين القضبان أمداً. «لن أسمح لهذا الـ«كرنشو» بأن يدفع بأخي إلى السجن!» ـ قال المسكين مناجياً نفسه قبل أن يهب من فوره فيصلح ذات البين ويرأب الصدع بخمسمائة جنيه دفعها للمتضرر عدّاً ونقداً. لم أر في حياتي (جورج) غاضباً كما رأيته حين علم بأن (توم) و(كرنشو) قد اتجها إلى «مونت كارلو» فور تسلّم المال حيث أمضيا على شواطئها الخلابة شهراً كاملاً.

وعلى امتداد عشرين عاماً ظل «توم» يُبْحِرُ في محيطات السعادة والشهرة يصاحب الحسان، ويرتدي أفخم الأزياء، ويتناول طعامه في أرقى المطاعم وأغلاها... كان من يراه يخاله ابن ست وثلاثين رغم تجاوزه الرابعة والثلاثين. كان طيب المعشر ودوداً لبقاً تنعم النظر إليه فيجذبك... تشدك صحبته رغم أنك تعلم علم اليقين أنه لايملك شروى نقير! أما ما أفسح له في الأفئدة مكان الصدارة فكانت جراءته المذهلة، وروحه المعنوية العالية... مرحاً كان دوماً سعيداً ينضح بالبشر محياه... ويشع منه ذلك السحر الغامض الرهيب، ما أحسست يوماً بثقل احتياجاته وطلباته الدائمة... وتلك الإتاوات التي كان يفرضها بانتظام عليّ فأستجيب لها باسماً راضياً حتى لكأنما كان يعطيني الذي هو طالبه!.

ما أقرضته خمسين جنيهاً يوماً دون أن يعتريني شعور بأنني المستدين!

كان «توم رمزي» معروفاً لدى الجميع... ولم يكن بوسعك أن تستحسن سيرته ولا أن تمنع نفسك من الوقوع في شراك حسن صحبته وجميل معشره في الوقت ذاته.

ورغم أن ـ الفقير إلى الله ـ «جورج» لم يكن يكبر أخاه المشؤوم بأكثر من عام فقد كان يبدو كشيخ في الستين وعلى امتداد ربع قرن ما تمتع بأكثر من أسبوعيْ إجازة في السنة. تراه في مكتبه منذ التاسعة والنصف فإذا هو ملازم له لايفارقه قبل السادسة مساءً وكان أميناً مجداً لاتتردد في الاعتماد عليه إما دعت الحاجة، أما زوجته الطيبة فكان مخلصاً لها في السر والعلن وما فاقه أحد في

المثالية والأبوة الحانية تجاه بناته الأربع يتفيأن في دوح محبته ورقته وحنانه وارف الظلال.

وكان قد عزم على ادّخار ثلث دخله كيما يتقاعد في الخامسة والخمسين فيقطن بيتاً في أقاصى الريف... ويظل يزرع حديقته الصغيرة ويلعب «الجولف» تلك كانت أقصى أمانيه... بريئة كانت حياته براءة الأطفال... نقية لايكدر صفوها مكدر أو تجترحها جريرة تستوجب الندم... وكان سعيداً بتقدمه في السن إذ إن «توم» كان يتقدم فيه كذلك ومقشة العمر لاتبقي على أحد من الناس أو تذر. وفرك «جورج» راحتيه ثم قال لي:

لقد كانت سفينة حياة أخي تبحر في اليم حينما كان شاباً وسيماً لكنه أصغر مني بسنة واحدة، وسيصبح عمره بعد أربع سنوات خمسين عاماً عندها لن تكون الحياة سهلة ميسرة بالنسبة له... أما أنا فسيكون لدي ـ حينما أشارف على الخمسين ـ ثلاثين ألف جنيه. لقد ظللت أردد طوال ربع قرن من الزمان أن الأمر سينتهي بـ«توم» إلى «الدرك الأسفل»... ولسوف نرى ما يكون من شأنه آنذاك سيتعلم «توم» ساعتها أي منقلب سينقلب وما إذا كانت حياة الدعة والراحة خيراً من الجد والعمل!

يالك من مسكين يا «جورج» قلت متعاطفاً معه في قرارة ذاتي وظللت أسائل نفسي ـ جالساً بمحاذاته ـ عما فعله «توم» الآن إذ إنه بدا جلياً أن «جورج» كان في قمة الغضب! ترى ماذا اجترح ذلك الشقي ليثير حفيظة أخيه إلى هذا الحد؟ سألت نفسي وإشفاقي على الشقيق الأكبر بتناذر خفي على الأصغر.

ـ أتعلم ما الذي حدث الآن؟ سالني «جورج» وكنت أتوقع الأسوأ متسائلاً عما إذا كان «توم» قد وقع أخيراً في قبضة العدالة. وبدا جلياً أن الاضطراب كان يبعثر الكلمات على شفتيه:

ـ ليس بوسعك أن تنكر جدي وإجتهادي وحرصي على إعطاء العمل ما يستحقه من الاهتمام و التفاني ـ كنت أميناً مخلصاً... صريحاً... نزيهاً... وبعد

حقبة من العطاء المثمر والاقتصاد في الإنفاق كنت أعتزم التقاعد على دخل يكفيني وعائلتي... ذاك ما خططت له... أما أديت واجبي خير أداء؟

ـ أجل! أجبته.

ـ وليس بوسع المرء كذلك أن ينكر أن «توم» كان عابثاً لاهياً طوال حياته... أنه كان وغداً لا ينطوي سجل سيرته إلا على صفحات من الخزي... وأن أفضل مكان له ليس سوى السجن يقوّم فيه ما اعوجّ. ألست محقاً؟.

ـ بلى... ما جاوزت الحقيقة. أجبته متعاطفاً... على أن وجهه احمرّ فجأةً وهو يقول مستطرداً:

ـ لقد ارتبط قبل عدة اسابيع بسيدة تكبره بما يخولها لأن تكون له أمًّا! ولقد توفيت الآن تاركةً له كل ما تملك! نصف مليون جنيه ويخت وبيت في لندن، إضافة إلى آخر في الريف!

وضرب «جورج رمزي» المنضدة بقبضته فجأة:

ـ هذا ليس عدلاً! ليس عدلاً أقول لك... تبّاً له!

وما تمالكت نفسي... غرقت في نوبة عميقة من الضحك وأنا أتأمل وجه «جورج» الغاضب... وتأرجح الكرسي حتى كدت أقع أرضاً! ولم يسامحني «جورج» على ذلك أبداً أما «توم» فكان كثيراً ما يدعوني إلى ولائم فخمة في منزله الراقي بحيّ «ميّ فير» وإذا كان يستدين مني بعض المبالغ التافهة أحياناً فما مرد ذلك لسوى جبروت العادة... وعلى أي حال فإن ما كان يقترضه مني ـ بين الفينة والفينة ـ لم يكن يتجاوز جنيهاً إنجليزياً ملكياً واحداً.